

دلائل الإعجاز

أنه أوتيها وأنه ممنونٌ يكملُ للحكم ويصحُّ منه القضاءُ فجعل يقولُ القولَ لو علم غيبه لاستحيا منه . فأما الذين يحسُّ بالنقص من نفسه ويعلم أنه قد علمَ علماً قد أوتيهِ من سواه فأنتَ منه في راحة وهو رجلٌ عاقلٌ قد حماه عقله أن يعدوَ طوره وأن يتكلسفَ ما ليس بأهل به .

وإذا كانت العلومُ التي لها أصولٌ معروفة وقوانينٌ مضبوطة قد اشترك الناسُ في العلم بها واتفقوا على أن البناءَ عليها إذا أخطأ فيه المخطئ ثم أُعجبَ برأيه لم يُستطعُ ردُّه عن هواه وصرفه عن الرأي الذي رآه إلاَّ بَعْدَ الجهد وإلاَّ بعد أن يكونَ حصيماً عاقلاً ثباتاً إذا نُبِّهَ انتبه وإذا قيلَ : إنَّ عليك بقيةً منَ الذنِّ ظرَّ وقفاً وأصغى وخشيَ أن يكونَ قد غرَّ فاحتاطَ باستماعِ ما يقالُ له وأنفَ من أن يلاجَّ من غيرِ بيِّنة ويتطيلَ لغيرِ حجة . وكان من هذا وصفه يعزُّ ويقلُّ فكيف بأن تردَّ الناسَ عن رأيهم في هذا الشأن وأصلك الذي تردُّهم إليه وتعوِّلُ في محاجَّتهم عليه استشهادُ القرائح وسبرُ النفوسِ وفلايُها وما يعرضُ فيها من الأريحية عندما تسمع . وكان ذلك الذي يفتح لك سمعهم ويكشفُ الغطاءَ عن أعينهم ويمرِّفُ إليك أوجههم . وهم لا يضعون أنفسهم موضعَ مَنْ يرى الرأيَ ويفتي ويقضي إلاَّ وعندهم أنهم ممن صفتُ قريحته وصحَّ ذوقه وتمَّتْ أدواته .

فإذا قلتَ لهم : " إنكم قد أُتيتُم من أنفسكم " ردُّوا عليك مثله وقالوا : " لا بل قرائحنا اصحُّ ونظرنا أصدق وحسبنا أذكى . وإنما الآفةُ فيكم لأنكم خيَّلتُم إلى نفسكم أموراً لا حاصلَ لها وأوهمكم الهوى والميلُ أن تُوجبوا لأحدِ الذنِّ ظمين المتساويين فضلاً على الآخر من غيرِ أن يكون ذلك الفضلُ معقولاً " . فتبقى في أيديهم حَسيراً لا تملكُ غيرَ التعجُّبِ . فليس الكلامُ إذاً بمُغنٍ عنك ولا القولُ بنافعٍ ولا الحجَّةُ مسموعة حتى تجد مَنْ فيه عونٌ لك على نفسه . ومن أتى عليك أبى ذاك طبعه فردَّه إليك وفتحَ سمعَه لك ورفَعَ الحجابَ بينك وبينه وأخذَ به إلى حيثُ أنتَ وصرفَ ناظره إلى الجهة التي إليها أوامات . فاستبدلَ بالذِّفارِ أنساً واركَّ مَنْ بعد الإيباء قَبولاً . ولم يكن الأمرُ على هذه الجملة إلاَّ لأنه